الفصل الخامس
الإنسان والإله

المغلق والمنفتح

١

الفرد والمجتمع : ان وثبة الحياة، الخالقة للانواع الحيوانية، وجدت ذاتها مجبرة ، بسبب المقاومات التي صادفتها في مادة عصية ، على التبعثر في فرديات متميزة . ان الحيوان يعيش وحده ، في جميع خطوط التطور تقريباً ؛ اضف الى ذلك ان الحصومات الحيوية تفصل ما بين الانواع ، بل حتى ما بين الافراد في النوع الواحد. بيد ان هذا التشتت وهذا الاسراف في ضروب الطاقة ، لا يفعلان شيئاً اكثر من ان يعبرا عن فشل ميل من الميول ، هو تركيز للطاقة وتقدم ، بصورة جوهرية . والواقع ، ان الحياة قد حصلت على الانسجام والتآزر بين ضروب الطاقة ، في اتجاهين اثنين : اتجاه يؤدي الى مجتمعات الحشرات ، وآخر يؤدي الى المجتمعات البشرية .

وعلى هذا النحو ، نجد ان الظاهرة الاجتماعية هي هدف الحياة ، الذي لا تبوح به . يقول « برغسون » :

ان التطور انما ينتهي الى الحياة الاجتماعية ... كما لو كان بعض طموح الحياة ، البدىء والجوهري ، لا يستطيع ان يجد رضاه الكامل الا في المجتمع . ان المجتمع ، الذي هو توحيد للطاقات الفردية ، انما يكسب من جهود الجميع ، ويجعل جهود الجميع اكثر سهولة . (الطاقة الروحية ، ص : ٢٧) .

ويقول ايضاً :

ان الحيـــاة الاجتماعية هي محايثة على هذا النحو ، للغريزة والذكاء ، مثل مثال أعلى مبهم ؛ ان هذا المثـــال الاعلى يجد تحقيقه الاكمل في مَنحَـــلة من المنحلات او في مَنمَلة من المنملات من جهـة أولى ، وفي المجتمعـات الانسانية من جهة اخرى . وسواء أكان المجتمع حيوانياً ام انسانياً ، فهو تنظيم ؛ انه يتضمن تآزراً ، وبصفة عامة ايضاً ، اخضاعـــاً للعناصر ، بعضها لبعض ؛ انه يقدم اذن ، مجموعاً من القواعد ، أو من القوانين ، يكون اما محبياً ببساطة ، أو متصوراً بالاضافـة الى ذلك . بيد ان الفرد ، في منحلة أو منملة ، مشدود الى عمله ، عن طريق بنيته ، والتنظيم في مجتمعه ثابت ثباتـــاً نسبياً ، في حين ان المجتمع الانساني ذو اشكال قابلة للتغير ، وهو منفتح لكل انواع التقدم . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢٢) .

ان الغريزة هي التي تفرض على الحيوان سلوكاً يتطابق مع فائدة الجماعة . ان الحياة قد وضعت فيه الاخلاص والخضوع ، على شكل من الآليات . وخلافاً لذلك ، فقد توصلت الى غاياتها ، عن طريق انحراف آخر ، لدى الانسان المحروم من الغرائز ، والمزود بالذكاء وبعض الحرية ، في وقت واحد ؛ وهذا الانحراف هو العادة ، التي هي آلية مكتسبة ، تحاكي الآلية الفطرية للغريزة . يقول « برغسون » :

من وجهة النظر هذه ، تبدو لنا الحياة الاجتماعية أشبه ما تكون بمنظومة من العادات ، متأصلة في كثير او قليل ، تنسجم مع حاجات الجماعة . ان بعض هذه العادات عادات قيادة ، واكثرها عادات طاعة ، سواء اخضعنا لشخص يأمر بموجب تفويض من المجتمع ، ام خضعنا لامر غير شخصي ، صدر عن المجتمع ، المدرك او المشعور به ، بصورة مختلطة . ان كلا من عادات الطاعة تحدث ضغطاً على ارادتنا . واننا نستطيع ان نتخلص منها ، ولكننا ننجذب نحوها حينذاك ، ونعاد اليها ، ونحن اشبه ما نكون بالنواس المبعد عن خط استقامته . (منبعا الاخلاق والدين ، : ص ٢)

ذاك هو أصل الالزام الاخلاقي ، فالمقاومات التي تعارض بها الطبيعة الفردية لكل منا ، الافعال النافعة للجماعة ، لا يلبث المجتمع ان يعوضها ، بمعارضته اياها بدوره ، بطبيعة جماعية مكتسبة . ولأن المجتمع يعارض الفرد بكتلته كلها ، فقد كان

هو ، في اكثر الحالات ، الاشد قوة . ان الالزام الاخلاقي « مقاومة للمقاومات » . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ١٥) .

ولكن ، يجب الا يذهب بنا الاعتقاد الى ان الفرد يجد نظاماً يفرض عليه من الخارج ، وكأنه توجيه ، ثم يبقى غريباً عنه . ان هذا النظام يحمل اليه التوازن والاطمئنان ، ويتيح له ان يتجاوز ذاته . يقول « برغسون » :

ليس هناك كائن منا يستطيع ان ينعزل انعزالاً مطلقاً عن المجتمع . انه لن يريد ذلك ، لانه يشعر تمام الشعور ، بأن القسم الاكبر من قوته ، انما يأتيه من المجتمع ، وانه مدين لمتطلبات الحياة الاجتماعية ، بهذا التوتر المتصل في طاقته ، وهذا الثبات في اتجاه جهده الذي يضمن لفعاليته أعلى مردود ، تلك المتطلبات التي لا تني تتجدد بدون انقطاع . ولكنه لن يستطيع ذلك ، حتى ولو أراده ، لان ذاكرته وخياله يعيشان بما وضعه المجتمع فيه ، ولأن روح المجتمع محايثة للغة التي يتكلمها ، وحتى لو لم يكن أي شخص هناك ، وحتى لو لم يفعل شيئاً غير ان يفكر ، فانه انما يتكلم ايضاً مع ذاته . . . بيد ان احتكاكاً اخلاقياً هو اكثر ضرورة له ايضاً ، لأنه سوف تثبط عزيمته بسرعة ، اذا لم يستطع ان يعارض الصعوبات ، التي لا تني تنشأ بدون انقطاع ، الا بقوته الفردية التي يشعر بحدودها. (منبعا الاخلاق والدين ، ص: ٨ — ٩)[1] .

* * *

(١) ان تمسك الفرد بالمجتمع يظهر في شعور المجرم الكبير بتبكيت ضميره .

المغلق والمنفتح : ان كل مجتمع يعبر ، على هـذا النحو ، عن ارادته في الحياة ، في منظومة من الاوامر الاخلاقية . بيد ان هذه الارادة تتأكد بالضرورة « ضد » فئـات اجتماعية اخرى ، خصوم حقيقيين ، أو مجرد خصوم ممكنين . ان المحبة العامة ، اي حب الانسانية ، ليس لهـا من مكان هنا ، وانمـا هي اخلاق تضع قوة الجماعة وشرفها فوق كل شيء ، على نحو ينفي ما عداه . انها أخلاق تثير الكبرياء ؛ انها في السلم وفي الحرب ، تحافظ على قابلية التأثر ؛ ومنعكـاتها الطبيعية هي الخوف والغضب ، الدفـاع والهجوم ؛ فهي اخلاق مغلقـة ، وتعبير عن ضروب الارادة في مجتمع مغلق. يقول «برغسون» :

ان المجتمع المغلق هو المجتمع الذي يتماسك أعضاؤه فـيما بينهم ، غير مكترثين ببقية بني الانسان ، فهم على استعداد دائم للمهاجمة أو للدفاع عن أنفسهم ، ملزمين في النهـاية باتخاذ موقف الحرب . ذاك هو المجتمع الانساني ، حينما يخرج من ايدي الطبيعة . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢٨٧) .

يقول « برغسون » :

تستطيعون في بادىء الامر ، ان تخاطوا بينه وبين الخوف من العقـاب ، ولكن ، انظروا الى ذلك من قرب ، فليس الامر لدى هذا الرجل امر تجنب العقاب ، بقدر ما هو امر محو الماضي ، والتصرف كما لو ان الجريمة لم ترتكب . عندما لا يكون هناك احد يعرف ان امراً حدث ، فكأن الامر لم يحدث تقريباً ... ولكن معرفته ، هو ، تبقى ، وها هي ذي تنبذه خارج المجتمع ، اكثر فأكثر ، ذلك المجتمع الذي يـأمل ان يثبت فيه ، بمحوه لآثار جريمته .

ان مجتمعاتنا المتحضرة ، مهما تختلف عن المجتمع الذي فرضته علينا الطبيعة بصورة مباشرة ، فانها توحي ، من ناحية أخرى ، بمشابهة أساسية بها . انها هي ايضاً ، مجتمعات مغلقة بالفعل . انها مهما تكن واسعة ، الى اقصى حدود الاتساع ، بالنسبة الى الجماعات الصغيرة التي دعينا اليها بالغريزة ، والتي من المحتمل ان تميـــل هذه الغريزة الى اعـادة تنظيمها ، في هذه الايام ، حينما تزول كل المكتسبات المادية والروحيـة من الحضارة ، انها مهما تكن واسعة ، فان جوهرها ليس اقل من

وذلك لانه لا يزال يلاحظ الاعتبار ذاته ، يوجه الى الرجل الذي كانه ، الى الرجل الذي لم يعد بعد ؛ واذن ، فالمجتمع لا يتوجه اليه ، انه يتكلم الى شخص آخر . وهو ، الذي يعرف مـا هو عليه ، انما يشعر انه اكثر انعزالاً عن الناس ، مما لو كان في جزيرة مقفرة ؛ لانه في العزلة يحمل معه صورة المجتمع ، وهي تحيط به وتشد عضده ؛ ولكنه الآن قد قطعت بينه وبين الصورة الاسباب ، كما قطعت بينه وبين المجتمع . انه يعود فيندمج في المجتمع ، حينما يعترف بجريمته ، وعندئذ سيعامله المجتمع بمـا يستحق ، وعندئذ ، انما اليه بالتأكيد سيتوجه المجتمع ... سيكون الى حد ضعيف ، سبباً في الحكم على ذاته ، وسيتجو على هذا النحو جزء من شخصه من العقاب ، ربمـا كان احسن الاجزاء ... وفي بعض الاحيـان ، دون ان يمضي الى هذا الحد ، يعترف بجريمته لصديق من اصدقائه او لأي من الرجـال الشرفاء . انه حينما يعود فيدخل في الحقيقة ، على هذا النحو ، انما يعود فيرتبط بالمجتمع ، بخيط من الخيوط ، يصله بنقطة من نقاطه ، ان لم يكن ذلك في نظر الجميع ، فعلى الاقل في نظر واحد منهم ؛ واذا لم يندمج في المجتمع فهو على الاقل الى جانبه ، قريب منه ؛ انه لن يعود غريباً بالنسبة اليه ؛ وعلى كل حال ، انه لم يقطع الاسباب قطعاً باتاً ، لا بينه وبين المجتمع ، ولا بينه وبين ما يحمل في ذاته منه . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ١٠ - ١١) .

جوهر تلك الجماعات، في ان تشمل، في كل لحظة من اللحظات، عدداً معيناً من الافراد، وان تنبذ البعض الآخر. (منبعا الاخلاق والدين، ص: ٢٥).

ويقول ايضاً:

كذلك، فقد كان السلام، حتى وقتنا الحاضر، تهيئة اما للدفاع واما للهجوم، وعلى كل حال تهيئة للحرب، بصورة دائمة. ان واجباتنا الاجتماعية تستهدف التماسك الاجتماعي؛ وسواء علينا أرضينا ام أبينا، فهي تفرض علينا، موقفاً من المواقف، هو موقف النظام في مجابهة الاعداء (منبعا الاخلاق والدين، ص: ٢٦) [1].

---

(١) ومع ذلك، ان وطنية اخف في عدوانها واقل في نبذها لما عداها وفي اغلاقها، ترتسم معالمها في قلب المجتمعات الحديثة. ولكن هذا كان تحت تأثير اخلاق ذات طبيعة تختلف عن طبيعة الاثرة الاجتماعية. يقول «برغسون»:

لقد عرف القدماء ذلك معرفة حقة؛ فقد كانوا يعبدون الوطن، وذاك شاعر من شعرائهم، هو الذي قال: انه لعذب ان يموت الانسان في سبيله. بيد ان العهد قد بعد بهذا التعلق بالمدينة، ذاك المجتمع الخاضع لامرة الاله الذي يهبه العون في الحروب، كما بعد العهد بالتعلق بالوطنية، التي هي فضيلة في السلم، بقدر ما هي فضيلة في الحرب، والتي يمكن لها ان تصطبغ بالصوفية، ولكن لا تدخل في دينها اي حساب، والتي تشمل بلاداً رحيبة، وتقيم امة وتقعدها، والتي تطمح ان تحظى لذاتها باحسن ما في الارواح، والتي في نهاية الامر، تكونت ببطء وبتقوى، من الذكريات والآمال، ومن الشعر والحب، ومن بعض الوان الجمال الاخلاقي الموجودة تحت الشمس، كما تكون العسل من الازهار. (منبعا الاخلاق والدين، ص: ٢٩٩)

ويقول ايضاً :

ان الطبيعة قد اقامته بين الاجانب وبيننا ، ستاراً حيك حياكة بارعة ، من ضروب الجهالة ، والآراء السابقة ، والاحكام السابقة ... ان الطبيعة لم تنهج نهجاً يختلف عن هذا النهج ، في سبيل ان تجعل من كل اجنبي عدواً بالقوة ، اذ انه وان كانت المعرفة الكاملة من كلا الجانبين ، ليست تعاطفاً بالضرورة ، فهي تنبذ الحقد على الاقل . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٣٠٨ — ٣٠٩) .

* * *

ان الخضوع الى مبدا غير شخصي ، يعبر عنه في صيغ أمرية ؛ وان ضغط الجماعة على الفرد ، وان تقطيع اوصال الانسانية الى مجتمعات يبغي بعضها على بعض ، او على الاقل ، الى مجتمعات بعضها غريب عن بعض ؛ تلك هي الوجوه الاخلاقية التي كانت تبغي اليها بنية المجتمعات الانسانية ، كما اوجدتها الطبيعة . ولكن ، هل بالامكان قيام أخلاق من نوع آخر ، اكثر تشدداً ، واوسع انسانية ؟ ذاك ما تكشف عنه تعاليم ذوي الفرديات القوية ، مثل الابطال والقديسين . انهم حينما يحطمون الاطر الضيقة ، التي تهدد الانسانية بالانحصار فيها ، انما يبشرون بأخلاق حب عام ، وينادون بـ « اخلاق منفتحة » .

نداء البطل : يقول « برغسون » :

لقد برز ، في كل العهود ، رجال استثنائيون كانت تتجسد

فيهم هذه الاخلاق . فقبل قديسي المسيحية ، عرفت الانسانية حكماء الاغريق ، وانبياء اسرائيل ، ودعاة البوذية ، وسواهم ايضاً . ان الاجيال كانت ترجع اليهم ، بصورة دائمة ، في سبيل الوصول الى هذه الاخلاق الكاملة ، التي نحسن صنعاً حينما ندعوها اخلاقاً مطلقة . ان هذا يحمل الصفة المميزة ، التي تضيء جوانب المسألة ، اصلاً . وان هذا ذاته يجعلنا نستشعر اختلافاً في الطبيعة ، لا اختلافاً بالدرجة فقط ، بين الاخلاق التي كنا بصددها حتى الآن ، والاخلاق التي نشرع بدراستها. ففي الحين الذي تكون الاخلاق الاولى فيه اكثر صفاء وأتم كمالاً ، كلما ارتدّت الى صيغ غير شخصية ، فان الاخلاق الثانية ، لكي تكون هي ذاتها تماماً، انما ينبغي لها ان تتجسد في شخص ممتاز، يصبح قدوة للناس . ان عمومية الاخلاق الاولى تعود الى التقبل العام لقانون من القوانين، في حين ان عمومية الاخلاق الاخرى، تعود الى المحاكاة العامة لنموذج من النماذج .

لماذا كان للقديسين مقلدون على هذا النحو ؟ ولماذا جر رجال الخير الكبار ، الجماهير وراءهم ؟ انهم لا يطلبون شيئاً ، ومع ذلك ، فانهم ينالون . انهم ليسوا بحاجة لاثارة الحماسة ؛ وما لهم الا ان يكونوا موجودين ؛ فوجودهم نداء . ذاك هو طابع هذه الاخلاق الأخرى ، بالتأكيد . ففي حين يكون الالزام الطبيعي ضغطاً او دفعاً ، تكون الاخلاق الكاملة التامة نداء يتردد . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢٩ – ٣٠)

ان الاخلاق المغلقة ذات اصل اجتماعي وغير شخصي ، في حين ان الاخلاق المنفتحة تتجسد في فرديات سامية . ان الامر ما كان يمكن ان يكون غير ذلك ، حينما فكر الناس ان كل اخلاق اجتماعية هي اخلاق نبذ بالضرورة . ان هذه الاخلاق، ما كان يمكن لها ان « تنفتح » ما لم تنكر ذاتها بذاتها. ولكن ، ما هو ينبوع هذه الاخلاق الثانية ، التي يستمد منها الابطال والقديسون سلطانهم السحرية ؟ يقول « برغسون » :

ان الرجال العظام، الذين يجرون الانسانية وراءهم، والذين تجاوزوا حدود المدينة ، يبدو انهم بذلك ، قد وضعوا انفسهم في اتجاه وثبة الحياة ... ان وثبة الحياة التي تجتاز المادة ، انما تحظى ، بتوسط هذه الارادات العبقرية، من المادة هذه ، ومن اجل مستقبل النوع ، بوعود ما كانت تستطيع ان تثيرها ، حينما كان النوع يتكون. اننا حينما ننتقل من التضامن الاجتماعي الى التآخي الانساني انما نقطع اذن ، الاسباب بيننا وبين طبيعة معينة ، ولكننا لا نقطعها بيننا وبين الطبيعة جمعاء . واننا نستطيع ان نقول، بتحوير تعابير « اسبينوزا » عن معناها، اننا في سبيل العودة الى « الطبيعة الطابعة » ، انما ننفصل عن « الطبيعة المطبوعة » . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٥٥)

ويقول في مكان آخر :

ان الحركة الحيوية تتتابع، دون عائق يعيقها ، لدى الانسان وحده ، ولدى اخيارنا بصفة خاصة ، تاركة تيار الحياة

الاخلاقية ، الخلاق بصورة لا تحديد فيهـا ، يتدفق من خلال هذا العمل الفني ، الذي هو الجسم الانساني ، والذي خلقته حين مرورها . ان اكبر نجاح احرزته الحياة ، انما هو الانسان ، المدعو بدون انقطاع ، الى الاستناد على مـاضيه بأجمعه ، ليؤثر في مستقبـله بصورة اشد قوة . بيد ان من هو خلاق احسن الخلق ، ان هو الا من كان عمله الشديد بالذات ، بمقدوره ان يقوي اعمـال الرجال الآخرين ايضاً ، وان يوقد بكرمه مواقد من الكرم . ان الرجال الاخيـــار العظام ، وبصفة اخص ، اولئك الذين فتحوا ببطولاتهم المبدعة والبسيطة ، سبلاً جديدة امام الفضيلة ، انما هم الكاشفون عن الحقيقة الميتافيزيقية . وهم ، مهما اقاموا في ذروة التطور ، فانهم اقرب مـــا يكونون من الاصول ، يجهلون من الاندفاع الذي يأتي من الاعماق ، امراً تحس به عيوننا . فلننظر اليهم متنبهين ، ولنحاول ان نعاني عن طريق التعاطف مـــا يعانونه ، اذا شئنا ان ننفذ ، حتى مبدإ الحياة ذاته ، بفعل من افعـال الحدس . ولكي نخترق غموض الاعماق ، انما ينبغي لنا ، في بعض الاحيان ، ان نستهدف القمم ؛ فالنار التي تشتعل في مركز الارض ، لا تبدو لنا الا في ذرى البراكين . (الطاقة الروحية ، ص : ٢٦)

بيد ان وثبة الحياة لم تكن الا صيغة ميسرة ، كان عالم البيولوجيا يختبر فيها ملاحظاته . ان فوق الوثبة الحيوية ، وثبة تحمل البطل والقديس معها ، هي الوثبة الخلاقة ، بل الله ذاته ،

وقد أدرك في التجربة الصوفية ان الاخـــلاق المنفتحة والدين الصوفي ليسا الا شيئاً واحداً وحيداً . يقول « برغسون » :

ان المتصوفة الحقيقيين يفتحون نفوسهم الى الموجة التي تغمرهم بكل بساطة . انهم واثقون من انفسهم ، لانهم يشعرون في ذواتهم بشيء من الاشيـاء احسن منهم [1] ، ولذلك يظهرون رجالاً عظاماً من رجال الاعمال ، رغم المفاجأة التي يتركون اثرهـــا في نفوس من يرون ان الصوفيـــة ليست الا رؤيا ، وانتقالاً ، ووجداً . وان ما تركوه يسيل في اعماق ذواتهم ، ان هو الا دفق هـــابط ، يسعى عن طريقهم ، الى البلوغ الى الآخرين من بني الانسان ؛ وان الحاجة الى نشر مـــا تلقوه من حولهم ، انما يشعرون بها ، وكأنها وثبة من الحب ؛ وهو حب

---

(١) ان ضروب اليقين لديهم تتجاوز الطمأنينة الاخلاقية التي تولدها الاخلاق المغلقة، تجاوزاً بعيداً . يقول « برغسون » :

ان الذات حينما تتركز في هذا الجزء الاجتماعي منها ، هل ذاك في نظرها الوسيلة الوحيدة للتعلق بشيء من الاشياء الصلبة ؟ ان هذا ما ستكونه ، اذا لم نستطع بصورة اخرى ، ان نتخلص من حياة كلها اندفاع ونزوات وحسرات . ولكننا في اعمق اعماق ذواتنا ، اذا ما عرفنا ان نبحث فيها ، انفـــا سنكتشف توازناً من نوع آخر ، هو احب الينا ايضاً من توازنها السطحي . ان النباتات المائية التي ترتفع فوق سطح الماء ، انما يهزها التيار بدون انقطاع ؛ ان اوراقها تتعانق من فوق المياه ، وتهبها شيئاً من الاستقرار ، في الاعلى ، عن طريق تصالبها فيما بينها . ولكن الجذور اكثر استقراراً ايضاً ، لانها ممتدة في الارض بصورة مكينة ، تلك الارض التي تسندها من اسفل . (منبعـــا الاخلاق والدين ، ص : ٧ – ٨) .

يطبع فيه كل منهم سمة شخصيته ؛ وهو حب يكون حينذاك في كل منهم ، انفعـــالاً جديداً كل الجدة ، بمقدوره ان ينقل الانسانية الى وضع غير الذي هي عليه . (منبعـــا الاخلاق والدين ، ص : ١٠١)

ان ما يعانيه البطل، وما يسعى الى نقله الى الآخرين من بني الانسان، انما هو عاطفة من عواطف التحرير. يقول «برغسون»:

انهم يقولون قبل كل شيء ، ان ما يعانونه هو عاطفة تحرير. ان الرفاهية ، واللذائذ، والثروات، وكل ما يأسر عامة الناس، تتركهم في حالة عدم اكتراث . انهم حينما يتحررون من كل ذلك ، انمـــا يشعرون بكابوس يزاح عن صدورهم ، ومن ثمت بفرح عظيم ... ولنقتصر على الكلام الى الروح ، المحررة على هذا النحو، عن وجود عوائق مادية ! فهي لن تجيب انه ينبغي ان تزاح العوائق ، ولا انه يمكن اقتحامها عنوة، وانما تعلن انها غير موجودة . اننـــا لا نستطيع ان نقول ، عن اعتقادهـــا الاخلاقي ، انه يقتلع الجبال ، لانها لا ترى جبالاً يجب اقتلاعها. (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٤٩ — ٥٠)

ان البطل هو « الانسان الاعلى » ، لا الانسان الاعلى الذي نادى به « نيتشه » ، المشدود أقصى شد ، في موقف من مواقف الاثرة المطلقة ، وانما الانسان الاعلى ، الحامل لرسالة التآخي ، الذي بمقدوره ان يرفع الانسانية جمعاء ، الى الذروة التي ارتفع اليها بذاته .

* * *

اننا نفهم الآن ، فهماً احسن ، مكانة الظاهرة الاجتماعية ، بالنسبة الى مجموع الاشياء ، فوظيفتها قائمة في خلق الظروف الخاصة ، لتفتح الفردية الخلاقة . انها عن طريق ما تتطلبه من الفرد من توتر متصل ، انما تثير فيه شدة في الطاقة ، ليس بمقدوره وحده ان يصل اليهـــا . بيد ان هذا النجاح لم يحصل دفعة واحدة بل انه ابعد من ان يتحقق في عالمنـا الراهن . وذلك لان الوثبة الحيوية ، ومقصدها العميق خلق فرديات خلاقـة ، انما انكفأت على ذاتها ، في كل مكان ، وحصرت الفرديات المرجوة لمصير أحسن ، في الدائرة الضيقـــة ، التي هي دائرة المجتمعات الحيوانية ، ودائرة المجتمعات الانسانية المغلقة . ان المجتمع يحدث ضغطـــاً على الفرد ، الذي يربطه بالتراب ، في اكثر النقاط تقريباً ؛ بيد ان معالم مجتمع من المجتمعـات ، يكون شرطاً في تحرير هذا الفرد ، انمـا ترتسم في نفوس بعض الرجال المخلدين . وربمـــا يتهيأ في قلب المعـارك والحروب ، بصورة مؤلمة ومحزنة ، أمر ازالة الخصومات التي تؤدي الى ذبح الاخ لأخيه ، كما يتهيأ أمر انشاء مجتمع من المجتمعـات ، هو المجتمع الذي كان اخيار بني الانسان يحملونه من قبل في قلوبهم . يقول « برغسون » :

لا يستطيع المجتمع ان يحافظ على بقائه ، الا اذا أخضع الفرد اليه ؛ ولا يستطيع ان يتقدم ، الا اذا ترك له حرية العمل ؛ وهاتان ضرورتان متضـادتان لا بد من التوفيق بينهما . ان

الشرط الاول قد نفّذ وحده ، في عـــالم الحشرات . ان مجتمعات النمل والنحل ، منظمة بتنظيم وموحدة بتوحيد يثيران الاعجاب ، ولكنها متجمدة في عياد Routine ثابت . فاذا ما نسي الفرد فيها ذاته ، فان المجتمع ينسى ايضاً غايته ؛ ان الفرد والمجتمع كليهما ، وهمـا في حالة نَوَمان Somnambulisme ، انما يدوران حول الدائرة ذاتها ، ويعودان فيدوران حولها ، بدلاً من ان يمشيا في استقامة ، قُدُمـاً ، نحو نجوع اجتماعي اكبر ، وحرية فردية اتم . ان المجتمعات الانسانية وحدها ، تستبقي الغايتين اللتين ينبغي الوصول اليهما ، ثابتتين امـــام انظارها . ان هذه المجتمعات ، في صراعها فيما بينها ، وفي حروبها التي يشنها بعضها على بعض ، انما تسعى بصورة واضحة ، عن طريق الاحتكاك والتصـادم ، الى جعل الزوايا مستديرة ؛ والى ائتلاف الخصومات ؛ والى حذف التناقضات ؛ والى جعل الارادات الفردية تندمج دون تشويه ، في الارادة الاجتماعية ، وجعل المجتمعات المختلفة تدخل بدورها في مجتمع أرحب ، دون ان يفقد كل منها من اصالته ، ولا من استقلاله . انه لمشهد يثير القلق ، ويطمئن النفوس ، حتى اننا لا نستطيع ان نتأمله ، دون ان نقول لانفسنا ان الحياة هنـا ايضاً ، عبر العوائق التي لا تحصى ، تعمل على خلق فرديات ، وعلى ضمها فيما بينها ، في سبيل الوصـول الى الكَمّ الاكبر والتنوع الاغنى والكيفيات الاسمى ، من الابداع والجهد . (الطاقة الروحية ، ص : ٢٧ - ٢٨) .

الميثولوجيا والتصوف

٣

الدين السكوني : ان الديانات البدائية تبدو لنا وكأنها نسيج لحته الاستحالات وسداه الاوهام . اما كيف يستطيع الانسان ان يعتقد بهذه القصص الخرافية ، ويطبعها بطابع التقديس ، فهذا ما نفهمه اسوأ الفهم . ولكن كل شيء يصبح قابلاً للفهم ، اذا ما فكرنا بان هذه القصص الخرافية تقوم بدور محدد في المجتمع الانساني ، هو الدور الذي تقوم به الاخلاق المغلقة فيه بالذات . يقول « برغسون » :

لو ترك الانسان لغريزته ، كما تركت النملة او النحلة ، لظل مشدوداً نحو الغاية الخارجية ، التي ينبغي له ان يبلغ اليها ؛ ولكان يعمل في سبيل النوع ، بصورة آلية ، وعلى نحو نوّماني . ولكنه ، لانه كان مزوداً بالذكاء ، ومتيقظاً على التفكير ، انما

انكفأ على ذاته ، ولم يفكر الا بان يحيا حياة مقبولة . لا شك ان تفكيراً صوريـــاً اظهر له ان من مصلحته ان يسعى الى سعادة الآخرين؛ ولكن كان لا بد من مرور قرون من الثقافة، لانشاء فيلسوف نفعي مثل « استورت ميل » ؛ و « استورت ميل » لم يقنع كل الفلاسفة ، بل ان اقناعه لعامة الناس كان اقل ايضاً . والحقيقة ، ان الذكاء ينصح بالاثرة ، قبل كل شيء. ان الكائن الذكي يندفع في هـــذه الجهة ، اذا لم يعترض سبيله معترض ... ان الدين اذن ، اذا نظرنا اليـــه من وجهة النظر الاولى هذه ، نجده رد فعل دفـاعي ، تقوم به الطبيعة ضد قوة الذكاء ، التي تجعل الانحلال يطرأ على كل شيء. (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ١٢٦ — ١٢٧)

ان الدين هو الوزن المقـابل لوزن الخوف والاحترام ، في كفتي ميزان ، وهو يعوض على المجتمع الاخطار المحايثة للذكاء. انه « ضمانة ضد الانحلال» . بيد ان وظيفته اشمل من ذلك . ان التفكير يقود الانسان الى الفكرة المرهقة ، بصدد عدم امكان تجنب الموت . اما الدين ، لانه وعد باستمرار الحيـاة ، فقد كان « ضمانة ضد الاعياء » . ان الذكاء لا يستطيع ان يفهم كل شيء ، وان يتنبأ بكل شيء ، امـــا الدين ، الذي يجعل ارادات علوية تتدخل في الامور ، فهو « ضمانة لقابلية التوقع ». (انظر كتاب : منبعا الاخلاق والدين ، من الصفحة ١٣٣ الى الصفحة ١٥٠) .

يقول « برغسون » :

ان الدين هو ما ينبغي له ان يملأ نقصاً عارضاً من تعلق المرء بالحياة ، لدى الكائنات المزودة بالتفكير...

ان الانسان هو الحيوان الوحيد ، الذي لا يطمئن الى عمله ، والذي يتردد ويتلمس طريقه ، والذي ينشىء المشروعات ، وكله امل بالنجاح وخوف من الاخفاق. انه الوحيد الذي يشعر انه عرضة للمرض، وهو الوحيد ايضاً ، في انه يعرف انه لا بد له من ان يموت . اما ما تبقى من الطبيعة ، فيتفتح في هدوء شامل . ان النباتات والحيوانات مهما كانت مستسلمة لجميع انواع الصدف ، فهي لا تعتمد على اللحظة التي تمر بها ، اقل مما تعتمد على الخلود ... ولكن هذا الكلام ليس كافياً ؛ فمن بين جميع الكائنات التي تحيا في مجتمعات ، ان الانسان وحده ، يستطيع ان ينحرف عن الدائرة الاجتماعية ، خاضعاً الى خواطر كلها أثرة ، حينما يصبح الخير العام مهدداً بالخطر ؛ ان المصلحة الفردية ، في كل مكان آخر ، متآزرة مع المصلحة العامة ، او خاضعة لها بصورة لا يمكن تجنبها . ان هذا النقص المزدوج هو فدية الذكاء ... وانه يستحيل الا تكون [الطبيعة] قد اتخذت ضروب الحذر ، في سبيل ان يعود النظام الى ما كان عليه بصورة آلية ، كلما اثار فيه الذكاء الاضطراب . والواقع ، ان الوظيفة التخريفية ... لها هذا الغرض تماماً . ان الدور الذي تقوم به ، ان هو الا انشاء الدين الذي ندعوه سكونيا ،

والذي كان علينا ان ندعوه الدين الطبيعي ، لو لم يتخذ هذا التعبير معنى آخر ... انه رد فعل دفاعي ، تقوم به الطبيعة ضد ما يمكن ان يكون هناك من أمر مرهق للفرد ، وامر يبعث الانحلال في المجتمع ، عند ممارسة الذكاء .

ان الدين السكوني يصل الانسان بالحياة ، ويصل الفرد بالمجتمع تبعاً لذلك ، بما يقصه عليه من قصص شبيهة بالقصص التي نهدهد بها للاطفال. (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢١٧ - ٢٢٥)

ان « الدين الطبيعي » هو الوظيفة التي تقوم بها القصص الخرافية ، انه « وظيفة تخريفية » ، مولدة للمحرمات على انواعها ، تتفتح في الميثولوجيا ، وتخلق الآلهة المنتقمين والآلهة الذين يكلأون برعايتهم . ولكن الدين ، وهو خطة تخيلتها الطبيعة في سبيل حفظ المجتمع ، لا يمكن ان يكون الا « ديناً سكونياً » ، فهو قد خلق ليحفظ الانسانية ، في المحافظة والركود ، باحاطتها بشبكة من الزواجر ، من جميع الجهات . انه ايضاً ، لهذه الاسباب ذاتها ، « دين مغلق » .

التصوف دين دينامي : انه لدين يختلف كل الاختلاف ، ذاك الدين الذي يستمد مبدأه من وثبة الحياة الخلاقة . انه يتضاد مع الدين الذي ارادته الطبيعة ، كما تتضاد الحركة مع السكون. ان هذا الدين هو دين كبار متصوفي المسيحية. يقول « برغسون » :

ان نهاية التصوف في نظرنا ، هي احتكاك ، وتطابق جزئي تبعاً لذلك ، مع الجهد الخلاق الذي تظهره الطبيعة . ان هذا الجهد من الله ، ان لم يكن الله ذاته . ان المتصوف الكبير فردية تجتاز الحدود المحددة للنوع بماديته ، وتديم الفعل الالهي على هذا النحو . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢٣٥)

ويقول ايضاً :

ان كائنات دعيت للوجود ، وكان مقدراً لها أن تحب وان تحَب ، لذلك ينبغي ان تعرف الطاقة الخلاقة بالحب . ان هذه الكائنات لم تكن تستطيع ، لتميزها عن الله ، الذي هو هذه الطاقة بالذات ، ان تظهر الا في العالم ، ومن اجل ذلك ، فقد صور العالم . ان هذه الكائنات ، لكي تحدث ، اضطرت في هذا الجزء من العالم الذي هو كوكبنا ، ومن المحتمل ان يكون ذلك في نظامنا الكوكبي بأكمله ، ان تكوّن نوعاً ، وعن هذا النوع نتجت انواع كثيرة ، كانت تركيباً نتج عنه ، او سنداً له ، او نهاية من نهاياته . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢٧٦)

ويقول ايضاً :

يبدو الخلق وكأنه مشروع قام به الله ، ليخلق خالقين ، وليلحق بمعونته كائنات جديرة بحبه . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢٧٣)

ويقول ايضاً :

ان الروح، في حال ارتجاج اعماقها بالتيار الذي يحملها معه، انما تكف عن الانكفاء على ذاتها، لتفر خلال لحظة من اللحظات من القانون الذي يريد من النوع والفرد ان يكون وجود احدهما شرطاً في وجود الآخر، بصورة دائرية. انها تتوقف، كما لو كانت تصغي الى صوت يدعوها. ومن ثمت تترك ذاتها تنساق مستقيمة الى الامام. انها لا تدرك القوة التي تحركها ادراكاً مباشراً، ولكنها تشعر بحضورها الذي تعجز عن وصفه، او تخمنه من خلال كشف رمزي. وعندئذ يحدث فرح عظيم، هو وجد تذوب فيه، او انجذاب تخضع له؛ ان الله هناك، وانها فيه. لم يعد من غموض. ان المسائل تغيب، وضروب الغموض تتلاشى؛ انه اشراق من السماء. ولكن الى كم من الوقت؟ ان قلقاً لا يدرك، كان يحوّم فوق الوجد، لا يلبث ان يهبط ويعلق بها، وكأنه ظلها... ان الاتحاد بالله مهما يكن وثيقاً، فهو لن يكون نهائياً، الا اذا كان كلياً. لم يعد هناك بُعد، ولا شك، ولم يعد هناك انفصال اساسي بين من يُحِب ومن يُحَب، فالله حاضر والفرح لا حدود له. بيد ان الروح اذا تلاشت في الله بالفكر والعاطفة، فان شيئاً منها يبقى خارجاً عنه، وهذا هو الارادة. ان حياتها ليست اذن الهية بعد، وهي تعرف ذلك، وهي تقلق لذلك بصورة غامضة، وما هذا الاضطراب اثناء الاخلاد للراحة، الا صفة مميزة لما ندعوه بالتصوف الكامل. ان هذا

الاضطراب يدل على ان الوثبة قد استرسلت ، لتمضي الى ابعد ، وان الوجد يثير اهتمام الرؤية والتحرك تماماً ، ولكن هناك الارادة ايضاً ، وانه لا بد من احلالها ذاتها في الله . عندما تضخم هذا الشعور الى درجة احتل معها المكان جميعه ، همد الوجد ، ووجدت الروح ذاتها وحيدة ، فحزنت لذلك حيناً . انها وقد اعتادت النور الباهر ، مدة من الزمن ، لم تعد تميز شيئاً في الظلام . انها لم تحسب حساباً للعمل العميق ، الذي تم فيها ، على نحو غامض ... تلك هي الليلة المظلمة التي تكلم عنها كبار المتصوفين ... ان الجملة النهائية المميزة للتصوف الكبير تتهيأ . ان تحليل هذه التهيئة النهائية مستحيل ، فالمتصوفة أنفسهم تلمحوا بجهد جهيد آليته . ولنحصر انفسنا في القول : ان آلة مصنوعة من فولاذ مقاوم مقاومة هائلة ، ومنشأة لتقوم بجهد خارج الطاقة العادية ، ستكون دون ريب ، في حالة مشابهة ، اذا كانت تعي في فترة تركيبها . ان بعض قطعها قد خضعت واحدة واحدة ، الى اقسى التجارب ، وبعضها قد نبذ واستبدلت به قطع اخرى ، وهي قد شعرت بنقص هنا وهنالك ، وبألم في كل اجزائها . بيد ان هذا الجهد السطحي كل السطحية ، ما له الا ان يتعمق ذاته ، لكي يتلاشى في الانتظار والأمل لآلة من الآلات العجيبة . ان الروح المتصوفة تريد ان تكون هذه الآلة . انها تحذف من جوهرها كل ما ليس صافياً الى حد كاف ، ومقاوماً ومرناً الى حد كاف ، لكي يستعمله

الله . من قبل كانت تشعر ان الله حاضر ، ومن قبل كانت تعتقد انها تراه في الوان رمزية من الكشف ، ومن قبل ايضاً كانت تتحد به في الوجد ؛ ولكن شيئاً من كل هذا لم يكن بالامكان ان يدوم ، لان ذلك كله لم يكن الا تأملاً ؛ فالعمل كان يردّ الروح الى ذاتها ، وكان يفصلها عن الله ، على هـذا النحو . اما الآن ، فالله هو الذي يعمل بها وفيها ؛ ان الاتحاد كلي ، ونهائي من جراء ذلك ... ان هذا الروح فيض من حياة ، من الآن فصاعداً ؛ انه وثبة كبيرة ؛ انـه دفعة لا تقاوم ، تقذف بها في مهمات من اكبر المهمات . ان تجنيحاً هادئاً لكل ملكاتها ، يجعلها ترى بعيداً ، ومهما تكن ضعيفة فانها تحقق بقوة . انها على الاخص ، ترى ببساطة ، وهذه البساطة التي تلفت الانتباه ، سواء في كلامهـا او في سلوكها ، انما تقودها خلال تعقيدات يظهر انها لم ترها ... ان حالات الكشف بعيدة الآن ، فالألوهية لا يمكن ان تظهر من الخارج لروح أصبحت ممتلئة منها ، من الآن فصاعداً . لم يعد من شيء يبدو انه يميز هذا الرجل ، بصورة جوهرية ، من الرجال الذين يمشي فيما بينهم . انه هو وحده يشعر بهـذا التغير الذي يرفعـه الى مصاف اعوان الله ، المنفعلين بالنسبة لله ، والفاعلين بالنسبة للناس . انه لا يستمد من هذا الارتفاع اية كبرياء ، بل ان تواضعه عظيم ، خلافاً لذلك ؛ وكيف لا يكون متواضعاً ، وقد استطاع ان يلاحظ ما يمكن ان ندعوه بالتواضع الالهي ،

حينما كان منصرفاً لذاته ، يتحدث مع انفعاله احاديث صامتة ، ذلك الانفعال الذي كانت روحه تشعر انهـــا تذوب فيه بأكملها ؟...

ان الحب الذي استنفد قواه، لم يعد حب الانسان لله بكل بساطة ، وانما هو حب الله لجميع بني الانسان . فمن خلال الله ، وعن طريق الله ، يحب الانسانية جمعاء ، بحب الهي . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢٤٧ — ٢٤٩)[1]

---

(١) ان هذه اللوحة من لوحـــات التصوف الكامل ، ان هي الا لوحة التصوف المسيحي . بيد ان تيار التصوف ، قبل ان يتخذ هذا الشكل النهائي ، كان قد اجتاز الفكر الاغريقي . يقول « برغسون » :

والواقع ، ليس مما يشك فيه ، ان يكون الهام « ديونيسيوس » قد امتد في النزعة الاورفية ، اذ انه الى هذه النزعة ، وربما الى الهام « ديونيسيوس » ، انما يعود الهام الافلاطونية الاول . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢٣٤) .

بيد ان هذا النوع من التصوف اذا ارتفع حتى حـــالة الوجد ، فـــان « افلوطين » يتصور هذه الحالة وكأنها تأمل خالص ؛ ان الوثبة تتجمد لديه في السكون . ان « افلوطين » يرى ان « العمل إضعاف للتأمل » .

ونجد السكون ذاته في التصوف الشرقي . يقول « برغسون » :

كان الامر عنده ، امر الفرار من الحيـــاة ، التي كانت قاسية عليه بصفة خاصة ... ان هذا الفرار من الحياة كان تلاشياً في الكل ، كما كان تلاشياً في ذاته ايضاً . ان البوذية التي ما لبثت ان حادت بالبرهمية عن مجراها ، لم تغيرها تغييراً جوهرياً ؛ وانما جعلت منها شيئاً اغزر علماً . حتى ذلك الحين كان الناس يرون الحياة تألمـــاً ، فأتى « بوذا » وصعد الى علة الالم ، فاكتشفها في الرغبة بصفة عامة ، وفي الظمأ الى الحياة ... (ان روحه) قد انفصلت عن الحياة الانسانية، ولكنها لم تبلغ بعد الى الحياة الالهية، فظلت معلقة بين فعاليتين في دوار

ان التصوف هو تجربة الله . ومنذ هذا الحين ، ماذا نطلب من البراهين على وجوده ؟ ان اليقين لدى المتصوف ليس من مرتبة عقلية ، وانما يختلط في انصهار كيانه انصهاراً صميماً مع الله ذاته . فهل نتطلب برهاناً على حضور ، او على تجربة ؟[1]

العدم ... اننا نفهم لماذا لم تكن البوذية تصوفاً كاملاً . ان التصوف الكامل لا بد ان يكون فعلاً وخلقاً وحباً . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢٣٩ — ٢٤١) .

ويتابع كلامه :

ان التصوف الكامل هو في الواقع تصوف كبار المتصوفة المسيحيين ... انه مما لا شك فيه ان اغلب المتصوفة قد مروا في حالات شبيهة بالنقاط المختلفة التي انتهى اليها التصوف القديم . بيد انهم لم يفعلوا شيئاً الا ان مروا به مراً ، وسرعان ما تجمعوا على ذواتهم ، في سبيل ان يبتدوا في جهد جديد كل الجدة ، فحطموا بذلك سداً من السدود . ان تياراً غزيراً من الحياة امسك بهم من جديد فتحررت من حيوياتهم المتزايدة طاقة من الطاقات ، وجسارة من الجسارات ، وقدرة على الفهم والتحقيق عجيبة . فلنفكر بما قام به ، على صعيد العمل ، كل من « القديس بولس » و « القديسة تريزا » و « القديسة كاترينا دو سيين » و « القديس فرنسوا » و « جان دارك » ، وغيرهم كثيرون . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢٤٣) .

(١) من العبث ان تحتج بان التصوف حالة شاذة ، ومن ثمّ مرضية . يقول « برغسون » :

[ان المتصوفين] يتكلمون عن حالات الكشف لديهم ، وعن حالات وجدهم ، وعن حالات انجذابهم . ان هذه الظواهر تحدث ايضاً لدى المرضى ، ولدى من يحملون ببنياتهم استعداداً مرضياً... بيد ان هناك حالات مرضية ، هي محاكاة لحالات سليمة ؛ ان هذه الحالات المرضية ليست اقل سلامة من الحالات السليمة ، والحالات السليمة ليست اقل مرضاً من الحالات المرضية . ان

ولكن سيقال ان ما يعانيه المتصوف في ذاته ، ان هو الا وثبة من الحب بعيدة المدى ، فقط . فهل لهذا الحب من موضوع ؟ وهل لهذه الوثبة ينبوعها ، في كائن حقيقي ندعوه الله ؟ ان المتصوف سيجيب : الحق يقال ، ان الله ليس شيئاً

المجنون يعتقد انه امبراطور ؛ وفي حركاته ، وفي ضروب كلامه ، وفي افعاله ، انما يؤدي ، بصورة مضبوطة ، شيئاً من حركات « نابليون » ، وضروب كلامه ، وافعاله . وفي هذا يكون جنونه بالضبط . فهل يقع شيء على « نابليون » من هذا ؟ اننا نستطيع ان نحاكي التصوف محاكاة ساخرة ، بقدر ما فعلنا بصدد « نابليون » ، فيكون هناك جنون صوفي ، فهل ينتج من هذا ، ان التصوف جنون ؟ (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢٤٠)

ويقول في مكان آخر :

بيد ان هناك مجموعة اخرى من الاعتراضات ، يستحيل علينا الا نحسب لها حساباً . ان البعض يحتجون ، بالفعل ، بان التجارب التي يقوم بها هؤلاء المتصوفة الكبار ، انما هي تجارب فردية واستثنائية ، وانه لا يمكن مراقبتها من قبل عامة الناس ، وانه لا يمكن مقارنتها من جراء ذلك ، بالتجربة العلمية ، ولا يمكن ان تحل لنا بعض المسائل . — ... بيد ان المتصوف قام برحلة ، يمكن للآخرين ان يعاودوها نظرياً ، وان لم يعاودوهـا فعلاً ، والذين بمقدورهم ان يقوموا بذلك ، هم على الاقل ، من العدد بقدر اولئك الذين كانت لديهم الجسارة والطاقة اللتان تحلى بهما « ستانلي » حينما ذهب لايجاد « ليفنغستون » . ولكن هذا القول ليس كافياً . فالى جانب الارواح التي تتبع سبيل التصوف الى نهايته ، هنـاك الكثيرون الذين يحققون جزءاً من المسافة ، على الاقل ؛ وكم هم الذين قاموا ببعض الخطى في هذا السبيل ، اما بجهد بذلوه بالارادة ، واما باستعداد في طبيعة كل منهم ! ان « وليم جيمس » كان يصرح بانه لم يمر قط بحالات صوفية ، ولكنه كان يضيف انه اذا سمع احد الناس يتكلم عنها ، ممن عرفوا هذه الحـالات بالتجربة ، فان « شيئاً في نفسه كان يجد صدى لذلك » . ان اغلب النـاس بيننا ، من المحتمل ان يكونوا في الحالة ذاتها... وان البعض ، دون شك ، قد

آخر غير هـذا الحب ذاته . انه لا يتميز منـه ، انه الوثبـة الخلاقة التي تظهر في العالم . انه « الينبوع » ، ولكنه ينبوع حاضر في كل مكان ، فاعل في كل مكان ، خلاق في كل مكان .

ومن خلال هذه النظرة ، انما كانت التجربة الدينامية للأنا العميق ، اصلاً ، صورة تقريبيـة ونسبية ولا شك ، بل تجربة مجزأة بصورة لا نهائيـة ، ان صح التعبير ، عن التجربة الكاشفة عن الله . ان الوثبة الحيوية هي اضفاؤهـا الرمزي على صعيد الحياة ؛ وان التصوف هو الاحتياز الكامل لها .

* * *

اغلقت نفوسهم ، بصورة كلية ، في وجه التجارب الصوفية ، فلا يستطيعون ان يعانوا شيئاً منها، ولا ان يتخيلوا شيئاً . ولكننا نصادف اناساً ، ليست الموسيقى لديهم الا ضجيجاً ، وهم مثل اولئك سواء بسواء ؛ وان احدهم ليعبر عن ذلك بالغضب ذاته ، وبنغمة الحقد الشخصي ذاتها ، بصدد الموسيقيين . ولا احد يستمد من ذلك حجة لمحـــاربة الموسيقى . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢٦٢ — ٢٦٣) .

ان اله المتصوف هو الله الحي ؛ انه الحياة ذاتها ، « لا اله الفلاسفة والعلماء ... »[1]. ان الله لدى هؤلاء هو «اللامتحرك» ، اي خلود الموت لا خلود الحياة . انها نظرة ناتجة عن الذكاء الانساني ، الذي يرى ان السكون وحده قابل للفهم ؛ انه يؤله على هذا النحو ، عجزه الخاص عن الاندماج في موجة الخلق والحب ، والتوحد معها ، تلك الموجة التي ليس هو منها ، الا شرارة باردة . ان كل ما يستطيع الذكاء والعقل ان يفعلاه

---

(١) هل الله عند « برغسون » هو الله في « اللاهوت » المسيحي ؟ ان الجواب ليس سهلاً . ان الكثيرين من فلاسفة الكاثوليكية قد اعترفوا منذ وقت مبكر ، ان الفلسفة البرغسونية تفتح السبل الى المسيحية ، بعودها نحو الحياة الروحية الذي قامت به في عالم ذي نزعة مادية . اننا نعرف من جهة اخرى تلك الموافقة التي وافق بها « برغسون » على الكاثوليكية ، قبل وفاته بقليل . واننا نعرف ايضاً ان التعميد اذا لم يأت ليجازي موافقته هذه ، فان هذا من جراء رهافة روحه ، اذ ان « برغسون » لم يشأ ان يفك اواصر الصلة بينه وبين اخوانه في الانسانية .

بيد اننا لا نستطيع ان ننكر ان نظرات كتاب « منبعا الاخلاق والدين » لا تنسجم لاول وهلة مع العقائد الكاثوليكية ، فالكنيسة لم تقبل قط ان تكون التجربة الصوفية السبيل الوحيد للوصول الى الله ؛ ان المذهب العقلي التوماني يبدو انه احسن ملاءمة لها . ومن ناحية اخرى ، ان آثار « برغسون » قد حظرت قراءتها السلطات الدينية ، وحظرها مفسرون مرخص لهم بالتفكير الروماني ، مثل « سرتيلانج » Sertillanges الذي قال : ان « انوار » الفلسفة البرغسونية تلح على « اخطارها » ، منذ وفاة الفيلسوف ، اكثر مما كانت .

انما هو ان يجمدا الوثبة الالهية الفياضة، في بعض صيغ وثوقية. انها تقريبات هذيانية، يحاول الانسان ان يدرك فيها شيئاً من المطلق.

ومن ناحية اخرى، كان بامكاننا ان ننتظر ان نرى «برغسون» يتجه نحو شكل اشكال من المسيحية، اكثر «تحرراً» من الكاثوليكية، التي يظهر ان نزعتها الوثوقية ومغزاها يقومان «بين المغلق والمنفتح». تلك هي النتائج التي كان بالامكان استخراجها، على الاقل، من بعض فقرات كتاب «منبعا الاخلاق والدين»، ولا سيما من هذا التلميح الى «الاصلاح». يقول «برغسون»:

ان عهد الاصلاح، وعصر النهضة، والاعراض او الاستعدادات الاولى المدفعة المبدعة، انما كانت في زمن واحد. انه ليس من المستحيل ان يكون هناك ثلاثة ردود من الافعال، يمت بعضها الى بعض بصلة نسب، قامت ضد الشكل، الذي اتخذه المثال الاعلى المسيحي، حتى ذلك الحين. ان هذا المثال الاعلى لم يبق اقل مما كان، ولكنه بدا وكأنه نجم أدار وجهاً واحداً من وجوهه نحو الانسانية بصورة دائمة؛ وها نحن اولاء قد شرعنا بتلمح وجهه الآخر، دون ان نتأكد البتة: ان الامر يتعلق بالنجم ذاته. (منبعا الاخلاق والدين، ص: ٣٣٣)

ومع ذلك، فمما لا شك فيه ان ثماني سنوات من التأمل، بعد صدور كتاب «منبعا الاخلاق والدين»، كان بامكانها ان تعدل من الاتجاه الصميم لتفكير «برغسون».

ان هذه الملاحظات القليلة لا تدعي انها تحل مسألة دقيقة، وانما تريد ان تشير الى بعض الصعوبات.

مصير الانسان

٣

ان مأساة العالم الحديث هي مأساة انشقاق . ان الحروب والثورات هي الشواهد على ذلك ؛ انها هي التي هزت الحضارة من أساسها وعرتها من حصونها ، تلك الحضارة التي لم تعرف كيف تتجاوز ذاتها . ان ما هو جوهري في مفاهيمنا الاخلاقية والروحية لم يتغير ، في حين ان الصناعة والعلم أوجدا ، في المستوى المادي، انساناً جديداً ونوعاً جديداً. انه كائن متضخم الجسم ، ذو قوى تضاعفت مئة ضعف ، ولكن روحه قد بقيت كما كانت . انها روح صغيرة في جسم كبير جداً ؛ ذاك هو اصل الجنون الذي أُصبنا به ، واصل الفوضى التي تتعثر فيها الانسانية ، انه ينبغي لهذه الانسانية ان تخلق لها روحاً تتلاءم مع جسمها . يقول « برغسون » :

اذا كانت أعضاؤنا ادوات طبيعية ، فأدواتنا هي من جراء ذلك ، اعضاء اصطناعية . ان اداة العامل استمرار لذراعه ، ومجموع الادوات التي تستخدمها الانسانية امتداد لجسمها . ان الطبيعة ، حينما زودتنا بذكاء صانع ، انما هيأت لنا ، على هذا النحو ، نمواً معيناً . بيد ان الآلات التي تسير بالبترول ، وبالفحم ، و بـ « الفحم الابيض » ، والتي تحيل الى حركة ، طاقات مخزونة ، جمّعت خلال ملايين السنوات ، انما أتت لتعطي اجسامنا العضوية امتداداً بعيداً ، وقوياً ، وهائلاً ، وغير متناسب مع حجومها وقواها ، الى حد لم يكن يتوقع منه شيء قط ، في المخطط الذي كان يتضمنه بنيان نوعنا . لقد كان صدفة وحيدة ، واكبر نجاح مادي احرزه الانسان على كوكبنا . لعل اندفاعاً روحياً كان ينطبع فيه في البداية . ان الامتداد قد حدث بصورة آلية ، وقد اسعفته ضربة المنكاش العارضة ، التي عثرت بكنز معجز تحت الارض . بيد ان الروح لم تزل في هذا الجسم الذي تضخم تضخماً عظيماً ، على ما كانت عليه ، شديدة الصغر فلا تستطيع ان تملأه الآن ، وعظيمة الضعف فلا تستطيع ان توجهه . ومن هنا كان الفراغ بينها وبينه ؛ ومن هنا نشأت المسائل المخيفة ، من اجتماعية وسياسية واممية ، تلك المسائل التي هي تحديدات كثيرة لهذا الفراغ ، والتي تستدعي في أيامنا هذه ، في سبيل ان تملأه ، كثيراً من الجهود غير المنظمة وغير الناجعة ... لنضف الى

ذلك ان الجسم النـــامي ينتظر ان يحظى باضافة من روح ، وان الميكانيكا تتطلب تصوفاً. وقد تكون اصول هذه الميكانيكا صوفية اكثر مما نعتقد ، فهي لن تجد اتجاهها الصحيح ، ولن تؤدي الخدمات المتناسبة مع قوتها ، الا اذا استطاعت الانسانية ، التي حنتها الميكانيكا اكثر ايضاً نحو الارض ، ان تصل عن طريقها الى ان تنتصب وتنظر الى السماء . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٣٣٤ — ٣٣٥) .

الميكانيكا والتصوف : بيد ان التصوف لا يمكن ان ينمو « بمحاربة » الآلة ، وانما « بتجاوزه » لها . ليس السلام في الرجوع الى الوراء رجوعاً يلغي النزعة الآلية دفعة واحدة . فاذا كانت الميكانيكا تستدعي التصوف ، فانها تهيء له ايضاً ، بما هي شرطه الضروري ، فما من وثبة روحية ممكنة ، ما دام الانسان مسحوقاً تحت ثقل العالم المادي . يقول « برغسون » :

ان هذا التصوف الحـــار والفاعل لم يحدث قط في الزمان الذي كان يشعر الانسان فيه ان الطبيعة تسحقه ، وان كل تدخل من قبله لا يجدي . ماذا نصنع حينما تحكم المجاعات التي يستحيل تجنبها ، على الملايين من الاشقياء ، بالموت جوعاً ؟ ان التشاؤم الهندي كان يجد في هـــذا العجز ينبوعه الاساسي . ان هذا التشاؤم هو الذي اعاق الهند عن ان تذهب حتى النهاية في تصوفها ، اذ ان التصوف الكامل عمل[1] . بيد ان

---

(١) ان ممـــا يثير الاهتمام ، ان نشير الى ان الهندوسية الحديثة هي في

الآلات اتت لتضاعف مردود الارض ولتجعل المنتجات ، بصفة خاصة ، تنتقل من قطر الى قطر ؛ كذلك اتت منظمات سياسية واجتماعية ، برهنت بصورة تجريبية على ان الكتل البشرية ليست محكومة بحياة عبودية وبؤس ، وكأن ذلك ضرورة لا تقاوم . فالتحرر اصبح ممكناً ، بمعنى جديد كل الجدة . ان الدفعة الصوفية ، ان انطلقت بقوة كافية في مكان من الامكنة ، فانها لن تتوقف دفعة واحدة امام استحالات العمل . انها لن تكبت ابداً ، في مذاهب منصرفة عن الحياة ، او في ممارسات لحالات الوجد ؛ وعوضاً عن ان تتلاشى الروح في ذاتها ، تتفتح بكل جوارحها على حب شامل . ولكن هذه الضروب من الابداع ، وتلك الانواع من المنظمات ، هي من اصل غربي . انها هي التي أتاحت للتصوف ان يذهب الى نهاية ذاته . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢٤١ — ٢٤٢) .

ويقول ايضاً :

ان مما لا يشك فيه ان يطمح التصوف الحق ، والكامل ، والفعال ، الى الانتشار ، من جراء المحبة التي تكوّن جوهره . كيف يمكن ان ينتشر ، حتى ولو مزجناه وخففناه ، كما يجب

طريقها الى وعي قوة الآلة المحررة . قال « راماكريسنا » : « ليس الدين موجوداً من اجل اصحاب البطون الخاوية » . وليس هناك ما يمنع ان ينشأ في الهند تركيب للانسان الكامل ، يستمد اصوله من ينبوع تصوف القرن العاشر . انه ربما كان في ذلك امل كبير للانسانية .

ان يكون ، في انسانية مشغولة بالخوف من الا تأكل حين تجوع ؟ ان الانسان لا ينهض فوق الارض الا اذا كانت هناك دوات قوية ، يجد فيها مستنداً له . انه ينبغي له ان يعتمد على المادة ، اذا شاء ان ينفصل عنها . وبعبارة اخرى، ان التصوف يستدعي الميكانيكا . (منبعا الاخلاق والدين، ص : ٣٣٤) [١] .

---

(١) ان « برغسون» لا يهمل من اجل كل هذا ، ان ينقد النزعة الآلية، بيد ان انتقاداته تحمل على النزعة الآلية ، كما تمارسها الانسانية في الواقع ، لا كما يمكن استخدامها ، في سبيل الاعلاء من مصيرها . ان الآلية اشبه ما تكون بمصعد ، تمكن الانسانية من ان ترتفع فوق ذاتها. يقول « برغسون » :

اننا دون ان نجحد الخدمات التي قدمتها الى الانسانية، بتنميتها لوسائل ارضاء الحاجات الحقيقية ، تنمية كبيرة ، انما نأخذ عليها انها شجعت ما هو اصطناعي منها الى حد بعيد ، وانها دفعت الى الترف ، وانها حبذت المدن على حساب القرى ، وانها اخيراً ، وسعت الشقة وحولت العلاقات بين رب العمل والعامل، وبين رأس المال والعمل ان جميع هذه النتائج يمكن اصلاحها من جهة اخرى ؛ فالآلة لن تعود حينذاك ابداً ، الا المحسنة الكبيرة. انه لا بد للانسانية من ان تشرع في تبسيط وجودها ، بهوس على قدر الهوس الذي لجأت اليه في تعقيده. ان الرياد لا يمكن ان يأتي الا منها، لانها هي التي قذفت بروح الابداع في اتجاه معين ، لا قوة الاشياء المزعومة ، ولا الجبرية التي هي من صلب الآلة، والتي هي اقل منها في ذلك ايضاً . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٣٣٢)

ان النزعة الآلية لا تنفي « الرجوع الممكن الى الحياة البسيطة » (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٣٢٤) . ان هذا العود قد يكون تهيأ من قبل ، اذ ان التاريخ يعلمنا ان تطور الانسانية يتبع قانون التواس ، وهو يذهب من طرف الى آخر ، فبعد زهد العصور الوسطى ، هوس القوة والمتعة في العصور الحديثة . [قانون « القسمة الثنائية » او « الهوس المزدوج »] (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٣١٩ وما يليها)

ويقول ايضاً :

ليبرز عبقري صوفي ؛ انه سيجر وراءه انسانية ذات جسم قد نما نمواً هائلاً ، من قبل ، وذات روح تتبدل من جرائه . انه سيجعل منها نوعاً جديداً ، او سيجررها من ضرورة ان تكون نوعاً ، اذ ان من يقول نوعاً يقول توقفاً جماعياً ، والوجود الكامل حركة في الفردية ... ان العائق المادي قد وقع تقريباً . غداً سيفتح الطريق ، في ذات اتجاه النفحة التي قادت الحياة الى النقطة التي وجب عليها ان تتوقف عندها. وليأت عندئذ نداء البطل ، فاننا لن نتبعه جميعاً ، ولكننا سنشعر جميعاً انه لا بد لنا من ان نصبح ابطالاً ، وسنعرف الطريق الذي سنوسمه اذا ما مررنا فيه. كذلك سيتضح غموض الالزام الاسمى امام كل فلسفة . فالرحلة قد ابتدئت ، وقد وجب قطعها . اننا حينما نعاود السير ، لا نفعل شيئاً الا ان نريد ما كنا اردناه من قبل. ان التوقف دائماً هو الذي يتطلب التفسير ، لا الحركة. (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٣٣٧ — ٣٣٨) [1] .

---

(١) بيد ان هذا الانتظار بفارغ الصبر ، الذي يشيع في هذه الاسطر ، ينبغي الا ينسينا ان السلام ليس في الانتظار السلبي . يقول « برغسون » :

ينبغي لنا الا نعتمد كثيراً على ظهور روح عظيمة ممتازة . فهي حين لا تكون ، فان ضروباً اخرى من التأثير قد تجعلنا نشيح بوجوهنا عن التفاهات التي تسلينا ، وعن التفاعات السراب التي نختصم حولها . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٣٣٨)

وعلى هذا النحو تأتلف ائتلافاً خفياً، حركات تاريخية ، كان يمكن ان نعتقد انها مستقلة بل متضاربة ، مثل : ضروب التقدم الصناعي والنزعة الآلية من جهة اولى ، والحركة الديموقراطية الساعية الى تحرير الجماعات من جهة ثانية ، والتصوف المسيحي ، في النهاية . ان الحركتين الاوليين همـــا شرطا تفتح الحركة الثالثة . كيف سيكون عالم الغد ؟ يستحيل علينا ان نتنبأ به ، بيد ان الانسانية تحمل في يدها ، من الآن فصاعداً ، عناصر مصيرها ؛ وعليها ان تجمعها في دفعة وحيدة من الابداع والتجاوز . يقول « برغسون » :

ان الانسانية تتأوه ، وقد انسحقت نصف انسحاق ، تحت ثقل ضروب التقدم التي احرزتها . انها لا تعرف معرفة كافية ، ان مستقبلها متعلق بها . عليها ان تنظر ، قبل كل شيء ، فيما

ان تفحص الحقائق الروحية تفحصاً صابراً ، بامكانه ان يقودنا ، مثلا ، الى يقين بصدد البقاء بعد الموت . يقول « برغسون » :

والحقيقة، اننا لو كنا على يقين، بل على يقين مطلق ، من البقاء بعد الموت، لما بقي بامكاننا ان نفكر بشيء آخر. ان اللذاذات سوف تبقى ، ولكنها ستبقى باهتة عديمة اللون ، لان شدتها لم تكن الا الانتباه الذي كنا نوجهه اليها . انها سيشحب لونها ، كما يشحب نور المصابيح في شمس الصبـــاح . ان اللذة سيكسفها الفرح . فرحاً ستكون في الواقع ، تلك البساطة في الحياة ، التي سينشرهـــا في العالم ، حدس صوفي ينتشر في كل اتجاه ؛ وفرحاً ستكون ايضاً ، تلك البساطة التي ستتبع كشفاً من السماء، اتباعاً آلياً ، في تجربة علمية موسعة . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٣٤٣)

اذا كانت تريد ان تستمر في الحياة . وعليها ان تتساءل ، فيما بعد ، فيما اذا كانت تريد ان تحيا فقط ، او فيما اذا كانت تريد ان تقدم ، علاوة على ذلك ، الجهد الضروري ، لكي تتم على كوكبنا الثائر ، كعهد لا يتجاوز ، الوظيفة الجوهرية للعالم ، الذي هو آلة لصنع الآلهة . (منبعا الاخلاق والدين ، نهاية الكتاب) .

انتهى